كثير جدًا ما يُميز الروائى الروسى العظيم فيودور دوستويفسكى، ويحفظ له مقامه الرفيع فى عالم الرواية بعد 140 عامًا على رحيله، ويدفع منظمة اليونسكو إلى إعلان 2021 عامًا للاحتفاء به فى أنحاء العالم بمناسبة المئوية الثانية لولادته.

لكن المعالجات النفسية العميقة لشخوص أهم رواياته ربما تكون أكثر ما يُميزه، بحكم الأثر الذى أحدثته أعماله فى الفلسفة وعلم النفس، وليس فى الأدب العالمى فقط. وعندما تنال رواية إعجاب فلاسفة كبار لا يمكن إلا أن يكون مؤلفها مبدعًا من نوع خاص جدًا. وهذا حال رواية الإخوة كارامازوف, التى تُرجمت إلى كثير من اللغات مثل أعمال دوستويفسكى عمومًا. فقد أبدى فلاسفة مثل مارتن هايدجر وفريدريك نيتشه ولودفيج فيتجنشتاين إعجابهم بها.

وعندما اهتم بها زيجموند فرويد، وجعلها ضمن مراجعه، كان هذا يعنى أن مؤلفها أسهم بأدبه فى تأسيس علم النفس. فقد كان فرويد الأب المؤسس لهذا العلم فى أواخر القرن التاسع عشر. كما استفاد فرويد من رواية المقامر من خلال تحليل شخصية بطلها ألكسى إيفانوفيتش، من أجل سبر أغوار سيكولوجية مُدمن الميسر، ودوافعه التى تترسب فى أعماقه ربما منذ طفولته، وكيف يمكن أن يكون لعب القُمار فى بعض الحالات طريقة لمعاقبة الذات.

إلى هذا الحد يمكن أن تكون أعمال أدبية عونًا فى تأسيس علمى، وموضع اهتمام فلسفى، وكذلك مصدر إلهام موسيقى. فقد كانت رواية المقامر أول عمل روائى يتحول إلى استعراض غنائى أنجزه الموسيقى الروسى سيرج بروكوفييف عام 1916 فى تحدٍ لنفسه، ولزملائه الذين راهنوا على فشله فى إنجاز هذا الاستعراض.

فيا له من أدب ذلك الذى يحدث كل هذا الأثر. ولكنه ليس أى أدب. إنه أدب دوستوفيسكى الذى يتميز أيضًا بأنه مستمد فى معظمه من تجارب عاشها هو، أو آخرون. ولا يخفى أن ألكسى فى روايته المقامر هو دوستوفيسكى شخصيًا.

وإذ نذكر اليوم هذا المبدع الفذ، لا يمكن أن ننسى فضل د. سامى الدروبى الذى نقل أعماله كلها إلى العربية، والهيئة العامة للكتاب التى أتاحتها للقارئ المصرى.